النقد الدنيوي عند إدوارد سعيد

م.د. عدي حسن مزعل

الجامعة المستنصرية/ كلية العلوم السياسية/ قسم الفكر السياسي

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان منهجية الناقد الفلسطيني الأمريكي إدوارد سعيد (١٩٣٥– ٢٠٠٣)، والتي تتضح من خلال بعض المفاهيم التي أبرزها النقد والنص والمؤلف، وهي مفاهيم ناقش سعيد أحدث الطروحات حولها من طرف المدارس والتيارات النقدية في الصف الثاني من القرن العشرين، فأخذ ببعض التصورات ورفض أخرى، ومن هذا النقاش انتهى إلى صياغة مفهوم يعبر عن مسار ستة النقدية هو (النقد الدنيوي).

كما يسلط البحث الضوء على مرجعيات سعيد الفكرية، وخاصة تلك التي استثمر تصوراتها في أعماله النقدية. فالمنهج يمثل حجر الزاوية في أعمال كل ناقد كبير. وفي هذا المنهج يخضع كل شيء للنقد، بما فيها النقد ذاته. ذلك أن الأفكار والنصوص والمؤسسات والأحداث إنما هي منتج بشري، الأمر الذي يقتضي ضرورة الاهتمام بالعالم الإنساني، وأن يكون النقد وثيق الصلة بهذا العالم وليس معزولاً عنه. وهكذا تصور يقتضي رفض عزل النص عن سياقه التاريخي، وكذلك رفض القول بموت المؤلف، ولكنه رفض مبني على المناقشة والحجج التي تطرح البديل، ولا تكتفي بالنقد فقط.

الكلمات المفتاحية: النقد، النص، العالم، المؤلف.

Abstract:

This research aims to demonstrate the methodology of the Palestinian-American critic Edward Said (1935-2003), which is evident through several concepts, most notably criticism, text, and author. These concepts were discussed by Said in the most recent approaches adopted by critical schools and movements in the second half of the twentieth century, adopting some concepts and rejecting others. From this discussion, he concluded with the

formulation of a concept that expresses his critical practice: "worldly criticism."

The research also sheds light on Said's intellectual references, particularly those concepts he incorporated into his critical works. Method represents the cornerstone of the work of every great critic. In this approach, everything is subject to criticism, including criticism itself. This is because ideas, texts, institutions, and events are human products, which necessitates attention to the human world, and criticism must be closely related to this world and not isolated from it. Such a conception requires rejecting the isolation of the text from its historical context, as well as rejecting the notion of the death of the author. However, this rejection is based on discussion and arguments that present alternatives, not merely criticism.

Keywords : criticism, text, world, author.

مقدمة:

يـ شكل النقد محوراً أ سا سياً في فكر إدوارد سعيد، فهو حا ضر في جميع أعماله. ويظهر ذلك منذ مؤلفه الأول "جوزيف كونراد ورواية ال سيرة المذاتية" (١٩٦٦)، و ما تلاه من مؤلفات. إذ عارض سعيد الا تجا هات الذقد ية التي تعزل النص عن مؤلفه وعن سياقه الفكري وال سيا سي والاجتماعي الذي تبلور في أحضانه. فمثلما لم يأخذ بمنهج مدرسة (النقد الجديد)، السائدة والمهيمنة في الأو ساط الأكاديمية الأمريكية، زمن انجاز عمله الأول سالف الذكر، لم يأخذ أيضاً بالبنيوية الفرنسية ولا بالتيارات التي جاءت بعدها كـ (التفكيك).

لقد مثل عقد الخمـ سينات والـ ستينات أهم اوقات تكوين سعيد الفكرية. وقد شهدت هذه العقود سجالات فكرية بين تيارات نقدية عديدة حول النص والمؤلف والنقد، وكان لتيار البنيوية وما بعدها الريادة في التصورات التي سادت آنذاك. و سعيد أحد النقاد الذين تأثروا بهذه التيارات، ولا سيما النقاد الفرنـ سيون الذين تعرف إليهم منذ صف الـ ستينات. وقد تجلى ذلك على نحو وا ضح بعد اطلاعه على أعمال الفيلـ سوف الفرنـ سي ميشيل فوكو (١٩٢٦ـــــ١٩٨٤).

مع ذلك فإن سعيد وإن تأثر بهذه التيارات، لكـ نه اختط لنفـ سه طريـ قاً غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم، أي إن ما اقتبـ سه هو فقط ما وجده يتنا سب مع ا شتغالاته الفكرية، التي كان أو سع مدى وأكثر انفتاحاً، أي أنها لم تكن محـ صورة النطاق أو متمركزة حول جغرافية أو ثقافة معينة دون غيرها، وهو ما كانت عليه كتابات المفكرين الفرنسيين.

أولاً: وظيفة النقد بين فيكو وسعيد

لا تتضح مفاهيم سعيد حول النقد والنص والمؤلف إلا باستعراض موقفه من الممارسة النقدية التي سادت في الثلث الأخير من القرن العشرين. ولقد ترجم هذا الموقف بصورة جلية في عمله النقدي "العالم والنص والناقد" (١٩٨٣)، إذ تحدث عن منهجه في النقد ورؤيته للنصوص. يُطلق سعيد على ممارسته النقدية تسمية (النقد المدنيوي). وهذا المفهوم الذي ظهرت صياغته في "العالم والنص والناقد"، إنما هو سليل دراسات سابقة، إذ سبق له تطبيقه في عمله الأول عن جوزيف كونراد كما في كتابه بدايات: القصد والمنهج (أحمد فرشوخ، إدوارد سعيد: التأويل والمدنيوية https://thebestgeo.hooxs.com/).

وفي هذين العملين، وفي أعماله الرئيسة اللاحقة، وخاصة تلك التي تمثل مشروعه (الاستشراق، تغطية الإسلام، الثقافة والإمبريالية)، يؤكد سعيد ويكرر القول تنظيراً وتطبيقاً، على رؤية نقدية تقول بأثر العوامل الخارجية على النص كما على الناقد. وبالمجمل فان هذه الأعمال "تعد أعمالاً مهمة ومركزية في تأسيس ونشر رؤية نقدية حديثة تقول بأثر العوامل الخارجية على (النص) كالثقافة، والنزعات النفسية، والتوجهات السياسية، وحتى الأحداث الطارئة على الساحة الدولية وآثارها وانعكاساتها" (سمير الخليل، فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب، ، صفحة ١٥٣)، الأمر الذي يترتب عليه عدم عزل النص عن سياقاته الفكرية والسياسية والاجتماعية.

ومرجعية سعيد في التأسيس للنقد الدنيوي هو الفيلسوف الايطالي فيكو (١٦٦٨ــــــ ١٧٤٤). وهو يشير إلى أن معنى "المدنيوية" لديه، قريب من كلمة "العلماني" أو "العلمانية" كما استخدمها فيكو، بمعنى الانكباب على القضايا الأرضية (إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى، ، صفحة ٣٨٠). في كتابه "العلم الجديد" (١٧٢٥) ميز فيكو بين (العالم المادي الطبيعي) و (العالم التاريخي)، وجوهر الفرق بين العالمين هو أن الحقيقة في العالم الأول برانية ظاهرية لأن ظواهرها ليست من صنع الإنسان، أما في العالم الثاني فالموضوع هو الإنسان، إذ يدرس الفيلسوف والمؤرخ أعمال الإنسان في التاريخ، ويستطيع من خلاله إنسانيته استيعاب أفعال الإنسان وفهمها، لذلك انتقد الفلاسفة السابقين لأنهم انشغلوا بدراسة الطبيعة التي هي من صنع الله، وأهملوا التأمل في عالم الحياة الاجتماعية الذي هو من صنع الإنسان (أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، صفحة ١٥٥، ١٥٦).

والمعنى الذي يقصده (فيكو) هو أن البشر هم من يصنعون تاريخهم من خلال ابتكار تنظيمات وقوانين وعادات تشكل مضمون عالمهم التاريخي. ولهذا يستطيع البشر

معرفة العالم الذي صنعوه بأنفسهم، لأن المبادئ التي قام عليها يمكن اكت شافها في داخل العقل الب شري، أي في نطاق التحولات التي تعرض لعقل من يتأمل ذلك التاريخ الما ضي، وهذه التحولات تتمثل في سل سلة من المراحل التي يمر بها العقل البشري من الخيال والشعر إلى مرحلة التفكير العقلي (عطيات محمد أبو ال سعود، فل سفة التاريخ عند جامباتيستا فيكو، صفحة ١٧١).

هذه الرؤية العلمانية للعالم التاريخي، والتي يجرد فيها فيكو الله من أي حـ ضور في التاريخ الإن ساني، التاريخ الذي هو من صنع الإن سان، وليس من صنع الله، يستقيها سعيد من فيكو ويطبقها على التاريخ الذي ينزع عنه هالة التقديس، بما هو احداث ومؤ سـ سات وأفكار صنعها الرجال والنساء، وعلى النصوص بو صفها منتج ب شري، وعلى النقد أي ضاً. فدعوة فيكو إلى الاهتمام بالعالم الإنساني تشكل ركيزة أساسية في فكر سعيد، إذ يدعو النقاد إلى الاهتمام بالعالم الدنيوي، وإن يكون النقد متصلاً بقضايا العالم ويحيل إليه باستمرار. لذلك يضفي سعيد على النقد بعداً يقع في تعارض مع النقد المذي يعزل نف سه ويعزل النص عن العالم، حال النقد البنيوي والتفكيكي، كما سنرى لاحقاً .

ذلك أن الدعوة إلى ربط الناقد بالعالم ـــ على غرار فيكو في دعوته إلى الاهتمام بالعالم التاريخي ـ ـ إصرار على و صل النقد بقـ ضايا المجتمع الإن ساني، ورغبة بأن يـ ضطلع بمكانة ودور هام في الحياة الفكرية وحياة المجتمعات. لذا كان النقد لديه " شكاك" و "دنيوي" و "مقاوم". يقول حول وظيفة النقد: إن "النقد بالأساس... يجب أن يرى نف سه مـ شجعاً للحياة ومعار ضاً، بحكم تكوينه، لأي شكل من أشكال الطغيان والهيمنة والظلم، مع العلم أن أهدافه الاجتماعية تتمثل بإنتاج المعرفة بحرية بعيداً عن القـ سر ولـ صلحة الحرية الب شرية" (إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، صفحة ٣٥). وموقفه من النقد أيـ ضاً هو "أنه لا يمكن أن يتوقف عند إنجازات اتجاه ما، أو يندرج تحت راية مدر سة ما، وإنما يجب أن يكون النقد ناقداً لنفسه، معرفاً بنواقصه. وما يـ سعى إليه هو خلق وعي نقدي أو ملكة نقدية لا مريدين وأتباع" (فريال جبوري غزول، إدوارد سعيد: العالم والنص والناقد، صفحة ١٨٨).

ومن وحي هذه الرؤية لوظيفة النقد يميز سعيد بين النقد المذي يتبناه ويدعو إليه (النقد المدنيوي)، والنقد المذي يطلق عليه (النقد المديني). إذ يرى أن العالم المدنيوي لم يعد محط اهتمام النقاد، وذلك نتيجة تكريس اللاعقلانية كما تجلت في العودة إلى ال سامي والمجرد الغامض، والمقدس على حـ ساب الب شري أو الدنيوي، فالتعميمات الزائدة عن المعقول مثل: ال شرق والإ سلام والإرهاب والشيوعية، ودورها في صبغ "الآخر" بالصبغة اللاهوتية

المانوية المعا صرة، لدلالة على مدى قوة التأثير الذي أثره الخ طاب ا لديني على ذ لك الخ طاب المتعلق بال عالم التاريخي الدنيوي (إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، صفحة ٣٥٣).

لقد عاد الدين بطرق مختلفة إلى الثقافة الغربية، ويظهر ذلك في تحول نقاد علمانيين سابقين نحو الدين، كما يتجلى في أعمال عديدة لنقاد بارزين تحمل عناوين كـ: " القبلان ية والن قد، العنف والم قدس، التفك يك واللاهوت". وهكذا نزعة يتبدى فيها الجنوح ا لديني والتحول صوب الأديان تعبر عن تف ضيل مطلق للحماية الم ضمونة التي توفرها منظومات الإيمان، ولا تعبر عن ن شاط نقدي أو وعي نقدي، ولا تمت ب صلة للتاريخ (المصدر نفسه، صفحة ٣٥٣، ٣٥٤).

ويرجع سعيد بدايات هذه النزعة إلى مدر سة (النقد الجديد)، وإلى خطاب الا ست شراق، ولاحقاً التفكيكية والسيميائية على حداً سواء، فقد ا ستحوذت على النقاد فكرة استبعاد العنصر البشري، مما جعل من حوار النقاد أ شبه بحوار الط رشان في غرفة ضيقة. فالناقد الحديث أ ضحى بعد أن كان مفكراً ذات مرة، رجل دين بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى (الم صدر نف سه، صفحة ٣٥٤، ٣٥٥).

ويقصد سعيد من هذا التمييز بيان أوجه الشبه بين الفكر ا لديني حـ يث التـ قديس والإ يمان المفرط والم يل نحو المتعالي، وبين ما هو حاضر في النقد الأدبي الغربي الذي ينعته بـ: النقد الديني. فالممارسة النقدية الأخيرة ملئ شأنها شأن الفكر الديني بالتقديس والإيمان شبه العقائدي. ويمثل على ذلك بما تشهده الجامعة في الغرب من تـقديس للأدب الأوروبي، لنظريا ته ون صو صه وأ ساتذته، وهو الأدب الذي ي صّور على أنه التراث الوحيد الجدير بالاهتمام والقراءة وأما التراثات الأخرى فُتـ ستبعد، وي صبح عندها كل ما هو أوروبي مركزي وأساسي وكل ما هو غير أوروبي هامشي وثانوي (المصدر نفسه، صفحة ٢٦، ٢٧).

يقرأ أحد الباحثين في تمييز سعيد بين هذين النمطين من القراءة النقدية: النقد المدنيوي والنقد المديني بأن النقد الأول يركز "على الواقع الـ سيا سي للمجتمع الذي تنتج فيه الن صوص وعلى علاقة النقد بالعالم"، في حين أن النمط الثاني من النقد فيرهن "نف سه للأفاق الـ ضيقة للتخ صص واليقين المفرط والرؤية التقليدية المت صلبة" (فخري صالح ، إدوارد سعيد: دراسة وترجمات، صفحة ٩٣). ورغم ما تتضمنه هذه القراءة من صحة، إلا أن لتمييز سعيد معنى أعمق، يُريد منه بيان عودة الدين في النقد الأدبي الغربي.

ومثل هذه العودة هي التي يعار ضها النقد المدنيوي. ويعود ذلك إلى مرتكز فكري أ سا سي في أعمال سعيد هو "الدعوة إلى المزيد من العلمنة للفكر والبحث سواء ات صل ذلك بالنقد الأدبي أو الفكر بـ شكل عام"، وتعكس هذه الدعوة موقفه "الفكري العام و سعيه إلى إ شاعة رؤية تنويرية ليبرالية تحارب التأثير الديني أو التقديسي على النتاج الفكري بـ شكل خاص" (سعيد البازعي، قلق المعرفة: إ شكاليات فكرية وثقافية، صفحة ٩٥). أي أن النقد الذي يريد سعيد ترسيخه هو النقد المتحرر من آثار الديني والميتافيزيقي، وأيضاً النقد الذي يتوجه إلى الأمور ا لمدنيو ية، ويرى "ا لمدنيا، أو ا لعالم، مرجعاً للعمل الذهني، إذ على الفكر الذي يعني بشؤون الدنيا أن يبدأ من ا لمشخص، وأن ينطلق من سياق م شخص" (في صل دراج، إدوارد سعيد: المثقف، ا لسيا سة، ا لسلطة، صفحة ٣٢) ، حتى أنه، وفي أطار بيانه لاغتراب النقد وانعزاله عن العالم، ا ستشهد بتمييز فيكو سالف الذكر، ودعوته إلى معرفة يكون موضوعها هو العالم التاريخي.

ثانياً: النص وسياقه التاريخي

طرح سعيد النقد الدنيوي كبديل عن النظريات النقدية النصية التي سادت في مجال الدراسات الأدبية الغربية، ولا سيما البنيوية والتفكيك. فمن منظور البنيوية أن الطبيعة ا لماد ية المكو نة للنص الأدبي هي اللغة، وأي مقاربة لتحليل الأدب بمنهج علمي عليها أن تنطلق من اللغة فحسب. وعلى ضوء هذه الرؤية تأ سست البنيوية في النقد الأدبي، وكان من مبادئها الأساسية رفض المنهج التاريخي في المدرا سات الأدبية والأخذ بالمنهج الذي يدرس الأدب كنظام في حد ذاته (صلاح فـ ضل، مناهج النقد المعا صر، صفحة ٩٠، ٩١)، وكذلك الدعوة إلى الاهتمام بالجوانب الداخلية للنص الأدبي بعيداً عن كل ما يمت بـ صلة للنص، حتى صاحبه، وبدعوتها هذه جعلت الذات حبيسة سجن النسق، والنسق عندها هو اللغة، التي جعلت منها غاية في حّد ذاتها، فالإن سان يو لد فيـ ها، وهي بـ يت الوجود كـ ما يقول ها يدغر، والإن سان سواء كان كاتباً أو قارئاً، لا يملك إلا أن يـ ستجيب لأن ساقها الداخلية الثابتة، إذ ليس له الحق أن يأتي بـ شيء من عندياته (عبد الغني بارة، المـ سارات الابستمولوجية للبنيوية، صفحة ٦٤) . وهكذا تحول هذا النسق "إلى سجن من اللغة"، و"أ صبحت البنيوية نزعة تغترب بالإنسان في سجون النسق والبنية والنظام" (جابر عصفور، آفاق العصر، صفحة ٢٢٤).

خلاف البنيو ية و كل الا تجا هات النقد ية التي تعزل النص عن مؤلفه وعن سياقه، النص لدى سعيد ليس معزولاً عن عالمه المادي الذي ت شكل فيه وفقاً لاعتبارات ظرفية وتاريخية. "إن النص في كينونته الفعلية كنص له وجود في العالم" (إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد،

صفحة ٣٩) . وذلك يعني، أن "له حـ ضوراً مادياً، وتاريخاً ثقافياً واجتماعياً، ووجوداً سياسياً.... فضلاً عن مدى من الارتباطات الـ ضمنية مع نـ صوص أخرى" (بيل أشكروفت، بال اهلواليا، إدوارد سعيد: مفارقة الهوية، صفحة ٣٤).

فكل نص أدبي مثقل بـ شكل ما بظرفه، أي بالوقائع التجريبية التي انبثق عنها. غير أن تـ ضخيم فكرة كهذه أكثر مما تطيق يجعلها تستحق النقد المبرر من قبل الناقد البنيوي الأمريكي ميشيل ريفاتير (١٩٢٤ــــ ٢٠٠٤)، الذي يذهب في كتابه "النص المكتفي ذاتياً" إلى وـ صف تقليص النص إلى ظروفه بالمغالطة، وما يأخذه سعيد على فكرة ريفاتير حول "النص المكتفي ذاتياً" انه أيضاً يقلص النص إلى بـ ديل واحد فقط، هو العالم المداخلي للنص المغلق على نفـ سه، حيث المعنى فيه يقتـ صر، على بعد داخلي فقط. ويتـ ساءل سعيد عن الطريقة التي يمكن عبرها التعامل مع النص وظروفه الدنيوية بإنصاف، ومن غير تفريط بأحد الجانبين أو التركيز على جـ انب دون الآخر؟ (إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، صفحة ٤١).

يقترح سعيد بديلاً عن المنهج المذي يقلص النص إلى ظرفه، والمنهج المذي يقلص النص إلى بـ عده المداخلي وحـ سب من دون مراعاة لـ سياقه، فالتقارب بين كيان العالم وكيان النص يفرض على القارئ أخذ الاثنين معاً بعين الاعتبار. ويرى أن النظرية النقدية الحديثة قد بالغت في التأكيد على مقولة "لانهائية التأويل"، وأن جزءاً من هذه المقولة قد اشـ تق من تـ صور للنص بأنه موجود في عالم نصي مغلق لا يمت بصلة للواقع (المصدر نفسه، صفحة ٤٦)، وهو تصور يرفضه سعيد، وحجته على ذلك لا تقتـ صر على فكرة أن النـ صوص موجودة بالفعل في الدنيا وحـ سب، بل ولأنها تعلن عن تموضعها وتعلقها بالعالم، وذلك عبر استقطابها اهتمام الدنيا، كما أن طريقتها لفعل ذلك تكمن في وـ ضع القيود على تأويلها (إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، صفحة ٤٦).

ويرى سعيد ضرورة الاهتمام بالظروف والأحداث التي عبرت عنها النـ صوص ونجمت عنها، لأن تلك الأحداث والظروف هي نـ صية أيـ ضاً، وجزء من بنية النص وليس شيئاً خارجاً عنه، ويـ ضرب مثلاً على ذلك يـ ستقيه من أعـ مال كونراد، فجميع أعـ مال هذا الروائي تطرح لـ نا وضعاً ــــــ من مثل زمرة من الأصدقاء ممن يجلسون على متن سفينة ويستمعون إلى حكاية ما ـــــ يفضي إلى الـ سرد المذي يـ شكل النص. ولذلك يؤكد على أن "النصوص دنيوية" وهي أحداث إلى حد ما، فهي تنتمي إلى العالم الاجتماعي، وتـ شكل جزءاً منه، وكذلك من اللحظات التاريخية التي احتلت مكانها فيها وفـ سرتها

حتى حين يبدو عليها التنكر لذلك كله (المصدر نفسه، صفحة ٨).

والمعنى الذي يقصده سعيد من دنيوية النصوص هو أنها "أحداث تحدث في زمنٍ ومكان دنيويين، في لحظات معينة وظرفية من التاريخ، وهي أيضاً جزء من نشاط المجتمع البشري، احتلت مكاناً ما في التاريخ ووصفت أحداثاً وفسرتها بطريقة بيّنة أو خفية في بنياتها السردية". وان النصوص "هي انفعالات الكاتب مع المحيط ومع الذات ومع التاريخ والثقافة والسياسة... الخ من الأمور التي تقع ضمن الحياة الدنيا. فهي بعد كل شيء "دنيوية" لها مشاكلها وانفعالاتها، فالوصف الذي يصف المرأة أو الطبيعة أو الأحداث الموجودة في الروايات كلها أمور دنيوية" (سمير الخليل، فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب،، صفحة ١٦٧، ١٦٨)، على الناقد ان لا يقصيها تحت ذريعة استقلال النص عن سياقه وظروفه الدنيوية التي تشكل فيها. فالنص في النهاية يتشكل في العالم الدنيوي ويتأثر كاتبه بعصره، بالواقع الاجتماعي والسياسي وكذلك بالثقافة السائدة، لذلك يحمل النص بصمات عصره. ومن هنا يأتي تأكيد سعيد على قراءة للنص تأخذ بالرابطة بين النص وموقعه في الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي، عاداً الوقائع المتعلقة بقوى السلطة وقوى المقاومة، هي من تجعل النصوص أمراً ممكناً، وهي التي يجب أن تكون محط اهتمام النقد والوعي النقدي (إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، صفحة ٩).

وجوهر فكرة سعيد هي الانطلاق من تاريخية النص وأرضيته ورفض أي نظرة استعلائية تريد نفي هذه التاريخية عنه. فالنص أي نص ليس خارج التاريخ الذي أنتجه، ولذلك لا يجوز أن تكون النصية في تعارض مع تاريخانية النص، كما لا يجوز أن تمسخ الاهتمام بالأحداث والظروف التي عبرت عنها النصوص ونجمت عنها. ومراده من ذلك هو أن يجعل للسياق الاجتماعي والتاريخي ولجملة الأحداث والظروف التي أنتج فيها النص دوراً هاماً في قراءته وتأويله. فضلاً عن أهمية تناولها واهتمام الناقد بها لأنها بوجودها في النص جزء من نصيته وبنيته، وليست شيئاً خارجاً عنه.(محمد عبيد الله، إدوارد سعيد والنظرية النقدية، https://www.addustour.com/.)

يتفق أحد الباحثين مع سعيد على تضمن المناهج السيميائية والبنيوية والتفكيكية...الخ شكلانية بلاغية وصفية في قرأتها للنص الأدبي، لكنه يأخذ عليه إنه ينفي عنها كل الايجابيات، في حين أن هذه المناهج هي "المدخل الوحيد الأول لقراءة النصوص، قبل الانطلاق إلى الخارج، بدرجات متفاوتة أو إهمال الخارج، وقبل التوسع الانفصالي باتجاه العلوم الإنسانية، كالفلسفة

وعلم النفس وعلم الـ سيا سة والفكر ... الخ بعيداً عن الأدب" (عز الدين المنا صرة، إدوارد سعيد والنقد الثقافي المقارن، صفحة ١٣٣).

غير أن سعيد لا ينفي بالمرة كل ايجابيات هذه المناهج، والدليل على ذلك أنه سيـ ستعير أدوات نقدية تعود إلى أعلام بارزة من أعلام هذه المناهج، وفي مقدمتهم ميـ شيل فوكو. بل أ نه ثمن الرؤى ا لجد يدة التي جاءت بـها النظرية الأدبية الأوروبية ـ ـ ـ ـ ـ كالبنيوية والتفكيكية والسيميائية ـ ـ ـ ـ ـ نهاية الستينات من القرن العشرين، من جهة ثوريتها على الجامعة التقليدية، والإيديولوجيا البورجوازية وتجاوز الحواجز الصارمة بين الاختصاصات الأكاديمية، إلا أنه يأخذ عليها انكفاؤها وتحولها أواخر ا لسبعينات، من حركة ثورية إلى ممار سة نقدية ن صية، وكان من نتاج ذلك أن صارت تلك النظرية، تتقبل الآن مبدأ عدم التدخل، وعدم الاهتمام بالمدنيوي والظرفي أو الاجتماعي، فأ صبحت الن صية بمثابة النقيض الحقيقي للتاريخ المذي تم تنحيته جانباً والحلول محله (إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، صفحة ٧، ٨)، مما باعد بين المفكرين وعزلهم عن قضايا المجتمع.

إن ما يرف ضه سعيد في النقد المعا صر، على وجه الخ صوص، هو عزل الن صوص عن سياقاتها، والأهم تقوقعه في أبراج عاجية، أي تخ ص صه و صمته تجاه ما يجري في المجتمع، وهو ما جعله منعزل عن التاريخ والمجتمع. لذلك طالب النقد بالانفتاح على ق ضايا الإنسان، حتى لا يصبح منتدى للأعضاء، أو شفرة معقدة لا يفهمها إلا المتخصصون (فريال جبوري غزول، إدوارد سعيد: العالم والنص والناقد، صفحة ١٨٩، ١٩٠).

ويبقى أن مفهوم الدنيوية يعكس رؤية سعيد التحليلية للن صوص، بو صفها ذات مرجعيات منغر سة في عوالمها الدنيوية. وثمة سؤال يطرح نف سه حول ممار سة سعيد النقد ية وهو: أين يتجلى أفقُ المغايرة والاختلاف عند سعـ يد في طر حه لمفهوم ا لمدنيو ية، طـ ا لما أن نـ قاد سو سيولوجيا الأدب البارزين، كـ ـ جورج لوكاش (١٨٨٥ ـ ـ ـ ١٩٧١) ولوسيان غولدمان (١٩١٣ ـ١٩٧٠) وبيير زيما (١٩٤٦ ـ ـ)، قد شدّدوا بدورهم على أن الن صوص الأدبية لا تتحدد مرجعياتها إلا بو ضعها في سياقاتها الاجتماعية، وصراعاتها الطبقية ؟

تكمن معالم التفرد عند سعيد في تناوله لمفهوم الدنيوية داخل مُمارسته النقدية، في توسيعه لدائرة المرجعي ليمتد إلى تحليل ما يكُمن خلف البنيات النصية من قوى مادية تكشف علاقة المعرفة بالسلطة، وتشاركها مع كل ما هو مؤ سـ ساتي، وهو الأمر الذي مكّن سعيد من التقاط ما تتبطن به الن صوص الأدبية الغربية من صور جاهزة عن الشرق، ترمي تسويره في خانة التابع والهامشي، لتسييد

الخطاب الا ستعماري وتأبيد هيمنته، وهو ما أغفله الـ عد يد من المنـ قاد ا لماركـ سيين أمـ ثال ريمو ند وليامز(١٩٢١ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ١٩٨٨) وفردريك جيمسون (١٩٣٤ـــــــ ١٩٢٤) وبيير ما شيري (١٩٣٨ـــــــ) وآخرين (أحمد الجرطي، النقد ما بعد الكولونيالي عند إدوارد سعيد، صفحة ١١).

ويتجلى هذا المعنى المذي يربط بين المعرفة والـ سلطة، ويكـ شف عن حـ ضور (الـ سلطة) حـ ضوراً كثيفاً في الأعمال التي أنجزت حول الشرق، في أعمال سعيد الأساسية، في "الا ستـ شراق"، و"تغطية الإ سلام"، كما في "الثقافة والامبريالية". ففي الا ستـ شراق رفض فكرة "براءة الأدب والثقافة من السياسة"، وذهب إلى استحالة "تفهم الأفكار والثقافات والتاريخ، أو درا ستها درا سة جادة، دون درا سة القوة المحركة لها.... أو الـ سلطة فيها" (إدوارد سعيد، الا ستـ شراق: المفاهيم الغربية للـ شرق، صفحة ٤٩)، لأن ليس ثمة معرفة خالـ صة، بمعنى أنها بريئة محايدة ومنزهة عن الأغراض. فكل معرفة وكل نص إنما يظهر في ظروف تاريخية محددة. وحول ذلك يقول: "لم يهتد أحد قط إلى و سيلة تمكن الباحث من عزل نفـ سه عن ظروف الحياة من حوله، أو من المـ شاركة (واعياً أو دون وعي) في طبـ قة من الطبـ قات، أو مجمو عة من المعتقدات، أو من الانـ شغال بمركز اجتماعي أو حتى من مجرد ممار سة حياته باعتباره عـ ضواً في مجتمع معين" (المصدر نفسه، صفحة ٥٥).

وإذا كان سعيد في الاستشراق قد حلل نصوص تنتمي إلى مجالات معرفية عدة خارج حقل الأدب، فأنه في الثقافة والامبريالية ـــــ كما في الاستشراق ـــــ درس العلاقة بين الثقافة والامبريالية، مـ سلطاً الـ ضوء بـ صورة خا صة على الأدب ودوره في تعزيز السيطرة الاستعمارية. ولذلك أنتقد درا سة الأعمال الأدبية بو صفها "تملك ا ستقلالاً ذاتياً، بينما يقوم الأدبُ نفسُهُ .... باستمرار بالإشارة إلى نفـ سه بو صفه بـ شكلٍ ما منخرطاً في التو سع الأوروبي ما وراء البحار، خالقاً بذلك....."بنى من المـ شاعر" تدعم، وتعزز، وتحكم وُترهف ممار سة الإمبراطورية" (إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، صفحة ٨٤).

وهنا، في الثقافة والامبريالية، ركز بـ شكل خاص على الرواية الأوروبية الـ حديثة وعلاقتها بالإمبريالية. ومن هذا المنطلق أ كد، وبتكرار، على موقـ فه المـ عارض لما روجت له التيارات النقدية سالفة المذكر، ذاهباً إلى ضرورة عدم فـ صل "هذه المـ سائل عن فهمنا لرواية القرن التا سع عـ شر، تماماً كما أن الأدب لا يمكن أن يُبتر عن التاريخ والمجتمع. إن الا ستقلال الذاتي المزعوم للأعمال الأدبية والفنية يقتـ ضي نوعاً من الفـ صل يفرض، فيما

أرى، محدودية مضجرة تأبى الأعمالُ الأدبية نفسها أن تقوم بفرضها" (المصدر نفسه، صفحة ٨٥).

وهكذا فإن من أهم خ صائص النقد المدنيوي أنه يتيح إمكانية ربط الامبريالية بالثقافة، فاندراج النص في العالم وارتباطه به، صفة لأزمة لكل النصوص الإبداعية، وعبر هذا الارتباط تكشف النصوص عن دنيويتها. وتحفز هذه الا ستراتيجية على إعادة النظر في طرق قراءة الن صوص، كما تفترض تغيير زاوية النظر لدى النقاد. فرغم امتلاك الناقد مهارات عالية في تفكيك شفرات الن صوص، فإنه مطالب بالبحث فيها عن علاقات ال سيطرة وخيال الهيمنة، وانعكاساتها على العالم الذي أنتجت في سياقه (هشام بن الهاشمي، إدوارد سعيد: من دنيوية النقد إلى هجنة الهويات، صفحة ١٥٦). وهو ما سيفعله سعيد في أبرز أعماله، كا شفاً عن البعد المدنيوي للثقافة الغربية ودورها في تعزيز ودعم ال سيطرة والهيمنة الغربية على العالم اللاغربي، أي بيان تورط تلك الثقافة مع السياسة الاستعمارية، وذلك عبر تجريدها من فكرة كونها "معرفة موضوعية" وبرئيه خالية من أثار السياسة .

ثالثاً: موت المؤلف

تتضمن رؤية سعيد السابقة للنص، والتي تروم وضعه في سياقه التاريخي، إ شارات ضمنية تولي أهمية لمكانة المؤلف ولا تقول بموته. وموقفه من المؤلف نجده في عمل اخر، في الا ستـ شراق، المذي وظف فيه مفهوم فوكو للخ طاب وطبقه على هذا الحقل المعرفي، إذ رأى أن أصناف عدة من الكتاب قد أسهمت في تشكيل الخطاب الا ستـ شراقي، ووفرت العد سات التي يرى من خلالها الشرق ويسيطر عليه. ووفقاً لذلك ذهب سعيد إلى مثل ما ذهب إليه فوكو حين ربط المؤلفين بالبُنى الفكرية وبما يعتمل في ال سلطة. لكنه يختلف معه في كونه يعطي أهمية للمؤلفين اكبر من تلك التي يُعطيها فوكو (آذيا لومبا، الكولونيالية وما بعدها، صفحة ٧١).

ويتـ ضح هذا الاختلاف بين الاثنين، وفي طريقة نظرهم للمؤلفين، في إعراب سعيد عن اختلافه مع فوكو، إذ يقول ـ ـ ـ ـ ـ بعد تأكيده على دنيوية جميع النصوص وتأثرها بالظروف المحيطة بها ـــــ : "ومع ذلك فأنني اختلف مع ميـ شيل فوكو.... في أنني اعتقد اعتقاداً راسخاً أن كل مؤلف فرد يُكسبُ عمله طابعه الذي يحدد طابع النص ولولا ذلك لأ صبحت لدينا □مجموعة□ جماعـ ية مجهو لة المؤلف من الذ صوص التي تمـ ثل الاستشراق" (إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، صفحة ٧٣).

ومعنى ذلك أن لكل مؤلف بـ صمته الخا صة التي تحدد طابع النص، أي أن ذاتية وفردية المؤلف لها أثرها على نتاجه الفكري، وتلعب دوراً أساسياً في تكوين فكره، وفي

توجيهه، بما لا يمكن معها ف صل فكر الكا تب عن شخ صه. ويعني ذلك أي ضاً أن سعيد لا يأخذ بفكرة "موت المؤلف" التي تقول بها البنيوية ويقول بها فوكو أيضاً، الذي يعتقد "انه ليست هناك قيمة تذكر، بصفة عامة، للنص المفرد أو المؤلف الفرد"، وخلاف ذلك يقول سعيد: " لكنني وجدت أن الواقع العملي، في حالة الا ستـ شراق (وربما ليس في حالات أخرى) يقول بغير ذلك" (إدوارد سعيد، الا ستـ شراق: المفاهيم الغربية للشرق، صفحة ٧٤).

جاءت فكرة فوكو عن "موت المؤلف" في معرض محاولته فهم "لماذا لا تُعد الذاتُ الإنسانيةُ كياناً مستقلاً وحُراً"، وانتهى بعد أن رفض التمييز بين الأفكار والوجود المادي إلى أن "كل الأفكار الإن سانية وكلُ حقول المعرفة مبنية ومحددة "بقوانين المعرفة...". وهكذا لا يوجد شخص "حُر" وليس ثمة قول لا يحددُهُ ترتيب أو شفرة مُسبقة. ومن هذا المنطلق أعلن فوكو عن موت المؤلف؛ لأن ليس ثمة شخص يمكنُ أن نعدُهُ المصدر الوحيد لأي قولٍ" (آنيا لومبا، الكولونيالية وما بعدها، صفحة ٥٩، ٦٠).

تعود أ صول مفهوم "موت المؤلف" إلى مفهوم "التناص" الذي قالت به أول مرة الناقدة البلغارية جوليا كر ستيفا (١٩٤١ــــــــ) في مقال لها نشر عام ١٩٦٦. ويعني التناص أن "لكل نص أدبي خا صة ولغوي عامة، علاقة تفاعلية بعدد آخر من الن صوص المكتوبة قبله"، وانه "ليس ثمة نص مكتوب يعتبر ظاهرة معزولة، وإنما مكون أو مركب من ت شكيلات ف سيف سائية من الاقتبا سات والإ شارات والعلامات والإحالات، لدرجة أن كل نص جديد هو في حقيقته ا ستيعاب وتحوير وتطوير وتحويل لنص آخر سابق أو معا صر له" (نبيل راغب، مو سوعة النظريات الأدبية، صفحة ٦٧٦، ٦٧٧).

وقد أ ضاف نقاد آخرون أمثال رولان بارت وجاك دريدا أبعاد جد يدة إلى مفهوم التناص، ذ لك أن النظرة إلى النص بو صفه وليد تفاعل وتناص مع ن صوص أخرى انتهت إلى إعلان موت المؤلف، بحيث أ صبح المؤلف م ستبعداً من طرف التيار البنيوي والتفكيكي، فكلاهما ألغيا كون "المؤلف منشئاً للنص أو مصدراً له، كما لم يعد هو ال صوت المتفرد الذي يعطي النص مميزاته، فهذه التوجهات جردت المؤلف من كل ما كان يتمتع به في ال سابق من امتيازات كاحتكاره معناه الخاص، وتحكمه في قصده الذاتي، وعبقريته التي تفضي به دون سواه إلى حقائق قارة أو أمور لم ينتبه لها غيره" (ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، صفحة ٢٤١).

وعموماً فإن مقولات مثل : "لا شيء خارج النص" و "النص المكتفي بذاته" و "موت المؤلف" يرف ضها سعيد. وغاية النقد المدنيوي لديه تكمن في ربط النص ب سياقه

الثقافي، بغية تجاوز الاهتمام المبالغ فيه بالقضايا البلاغية والجوانب الجمالية، أي تجاوز الشكلانية البحتة التي اتسمت بها المناهج النقدية المعاصرة .

إن اختلاف سعيد مع النقد البنيوي وما بعده، لا يقتصر على مفهوم النقد والنص والمؤلف، وإنما يمتد إلى دور المثقف أيضاً. وصفوة القول أن " سعيد يؤمن بخلاف الناقد ما بعد الحداثي، بوجود أصول للنص تحدد مادة المنتج والملابسات الإيديولوجيا التي لها تأثير على الشكل والمضمون. ويجب على الناقد أن يربط نفسه بالعالم خارجه دون أن يفقد وجهته نحو الجمهور أو المجال الاجتماعي. ومثل ذلك الناقد "دنيوي" لأنه ينتقل وراء الحدود الضيقة لمهنته الأكاديمية" (شيلي واليا، إدوارد سعيد وتدوين التاريخ، صفحة ٦٢).

الخاتمة:

لقد تأثر سعيد بأعمال مفكرين كبار اقتبس منهم مناهج ومفاهيم وطبقها في قراءاته النقدية، ومن دون أن يعني هذا التأثر انه كان صدى لأعمال من تأثر بهم. فسعيد، شأنه شأن جميع النقاد البارزين، ممن تأثروا بغيرهم ولكن أضافوا وجددوا، فكان له منهجه ورؤيته الخاصة في النقد. ويتجلى ذلك في تأسيسه لحقل معرفي لا زالت النقاشات تدور حوله، وهو حقل (الدراسات ما بعد الاستعمارية)، انتقد سعيد المدارس النقدية المعاصرة، وذلك لنزعتها التي تكرس الواقع القائم عندما تعزل النص والنقد عن حياة المجتمع وقضاياه. في حين أن النص والناقد هم نتاج جملة من العوامل التي تؤثر في تكوينهما. لذلك يشترط سعيد على المثقف الخوض في القضايا الدنيوية، قضايا البشر والمجتمع. وهذا الأمر يعود إلى رؤيته لدور المثقف أولاً، وإلى الواقع القائم الذي شهد بفعل التحولات التي طرأت على العالم غياب دور المثقف وعدم فاعليته، وهو ما يقتضي من الأخير تجاوز هذا الواقع، والحضور الفاعل في الشأن العام.

ومن وحي رؤيته للعلاقة بين النص والواقع الذي ظهر فيه، سلط سعيد الضوء في أبرز أعماله على العلاقة بين الثقافة والسياسة، بوصفها علاقة غير بريئة أو محايدة، فكان من أوائل النقاد الذين اثاروا الجدل حول العلاقة بين الحقلين. وقد ساهم المنهج الذي اجترحه في تقديم قراءات كان لها الاثر في حقلها، ويتضح ذلك في عمله الشهير (الاستشراق)، وكذلك في (الثقافة والامبريالية).

يترجم بعض الباحثين مفهوم "النقد المدنيوي" الذي استخدمه سعيد لوصف ممارسته النقدية بـ "النقد العلماني". والمفهوم لا يقتصر معناه على الفصل بين الدين والسياسة، أو على الرؤية العلمية للعالم بعيداً عن أية قوى غيبية أو تفسيرات لاهوتية، وإنما يشير لدى

سعيد إلى معاني أخرى تتعلق بوظيفة النقد ورهاناته وطرق قراءة النصوص وعلاقتها بالعالم، وكذلك مهمة المثقف ودوره، وجميعها معاني لا يمكن اختزالها في مفهوم العلمانية، لأنها أوسع من حيث المعنى الذي يريده سعيد من المفهوم، ولذلك الأصح ترجمة المفهوم بـ "النقد الدنيوي".

المصادر:

أحمد الجرطي، النقد ما بعد الكولونيالي عند إدوارد سعيد، ضمن كتاب: إدوارد سعيد من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف، ترجمة وإعداد محمد الجرطي، منشورات المتوسط، إيطاليا، ٢٠١٦، ط١.

أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٨٩، ط٢.

أحمد فرشوخ، إدوارد سعيد: التأويل والدنيوية، https://thebestgeo.hooxs.com/.

إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠، ط١.

إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٨، ط٣.

إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦، ط١.

آنيا لومبا، الكولونيالية وما بعدها، ترجمة باسل المسالمة، دار التكوين، دمشق، ٢٠١٣، ط١.

بيل أشكروفت، بال أهلواليا، ادوارد سعيد: مفارقة الهوية، ترجمة سهيل نجم، مراجعة حيدر سعيد، نينوى للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠٠٠، ط١.

جابر عصفور، آفاق العصر، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط١، ١٩٩٧.

سعيد البازعي، قلق المعرفة: إشكاليات فكرية وثقافية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٠.

سمير الخليل، فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب، تموز، دمشق، ط١، ٢٠١٤.

شيلي واليا، إدوارد سعيد وتدوين التاريخ، ترجمة وتقديم أحمد خريس ونا صر أبو الهيجاء، أزمنة للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٧، ط١.

صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٢، ط١.

عبد الغني بارة، المسارات الأبستمولوجيا للبنيوية، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، عدد ٦٤، ٢٠٠٤.

عز الدين المنا صرة، إدوارد سعيد والنقد الثقافي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، عدد ٦٤، ٢٠٠٤.

عطيات محمد أبو ال سعود، فل سفة التاريخ عند جامباتيستا فيكو، دار التنوير، بيروت، ٢٠١٠، ط٢.

محمد عبيد الله، إدوارد سعيد والنظرية النقدية، http://www.addustour.com.

ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٢، ط٣.

نبيل راغب، مو سوعة النظريات الأدبية، ال شركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط١، ٢٠٠٣.

فخري صالح، إدوارد سعيد: درا سة وترجمات، منشورات الاختلاف، بيروت، ٢٠٠٩، ط١.

فريال جبوري غزول، إدوارد سعيد: العالم والنص والناقد، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، المجلد الرابع، العدد الأول، ١٩٨٣.

فيصل دراج، إدوارد سعيد: المثقف، السياسة، السلطة، ضمن كتاب: مشاعل عربية على دروب التنوير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٩، ط١.

هشام بن الهاشمي، إدوارد سعيد من دنيوية النقد إلى هجنة الهويات، مجلة الأزمنة الحديثة، المغرب، عدد٨، ٢٠١٤.